الباب السابع

سومر (*)

وجيه — فضل الشرق الأدنى على الحضارة الغربية

لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفى خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشئون البشرية التى وصل إلينا علمها . وإذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم فى هذا الكتاب فإنا نقصد به جميع بلاد أسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوب الروسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً — وإن خرجنا فى هذا على مقتضيات الدقة أكثر من ذى قبل — على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . على هذا المسرح غير الدقيق التحديد الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة نشأت الزراعة والتجارة ، والخيل المستأنسة والمركبات ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، ونشأت الحرف والصناعات ، والشرائع والحكومات ؛ وعلوم الرياضة والطب ، والحقن الشرجية ، وطرق صرف المياه ، والهندسة والفلك ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب وشيدت المكتبات والمدارس ، ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء ، وصنع الخزف المطلى المصقول والأثاث الدقيق الجميل ، ونشأت عقيدة التوحيد ووحدة الزواج ، واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، وعرف النرد والداما ، وفرضت ضريبة الدخل ؛ واستخدمت المرضعات ، وشربت الخمور — عرفت هذه الأشياء كلها واستمدت منها أوربا وأمريكا

(*) ويكتبها بعض المؤرخين السومر والبعض الآخر شومر . (المترجم)

ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان ، وقصارى القول أن « الآريين » لم يشيدوا صرح الحضارة — بل أخذوها عن بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه . وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخير من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد .

الفصل الأول

عيـــلام

ثقافة السوس — دهان الفخارى — عجلات المركبات

إذا نظر القارئ إلى مصور لبلاد إيران ومر بإصبعه على نهر دجلة — مبتدئاً من الخليج الفارسى حتى يصل إلى العمارة ، ثم اتجه به شرقاً مخترقاً حدود العراق إلى مدينة شوشان الحديثة ، إذا فعل هذا فقد حدد لنفسه موقع مدينة السوس القديمة — التى كانت فيما مضى مركز إقليم يسميه اليهود بلاد عيلام — أى الأرض العالية . فى هذا الصقع الضيق الذى تحميه من غربه المناقع ومن شرقه الجبال الحافة بهضبة إيران العظيمة ، أنشأ شعب من الشعوب لا نعرف أصله ولا الجنس الذى ينتمى إليه إحدى المدنيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم . وقد وجد علماء الآثار الفرنسيون فى هذا الإقليم منذ جيل مضى آثاراً بشرية يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام ، كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام ٤٥٠٠ ق م (*)(١)

ويبدو أن أهل عيلام كانوا فى ذلك الوقت قد خرجوا توا من الحياة البدوية ، حياة صيد الحيوان والسمك ، ولكنهم كانت لهم وقتئذ أسلحة وأدوات من النحاس ، وكانوا يزرعون الحبوب ويؤنسون الحيوان ، وكانت لهم كتابة مقدسة ووثائق تجارية ، ومزايا وحلى ، وتجارة تمتد من مصر إلى الهند(٢). ونجد بين أدوات الظران المسواة التى ترجع هنا إلى العصر الحجرى الجديد مزهريات كاملة الصنع رشيقة مستديرة عليها رسوم أنيقة من أشكال هندسية أو صور جميلة تمثل الحيوان والنبات ، نعد بعضها من أجمل ما صنعه الإنسان فى عهود التاريخ

(*) يعتقد الأستاذ برستد أن ده مرجان وپمبلى وغيرهما من العلماء قد بالغوا فى قدم هذه الثقافة وثقافة أنو(٢) .

obeikandl.com

كله(٤) . ولسنا نجد فى تلك البلاد أقدم ما عرف من عجلات الخزاف وحسب بل نجد فيها أيضاً أقدم ما عرف من عجلات المركبات ، ذلك أنا لا نعثر مرة أخرى على هذه المركبة التى كان لها شأن متواضع ، ولكنه شأن حيوى فى نقل المدنية من مكان إلى مكان ، إلا بعد هذا الوقت فى بلاد بابل ، ثم بعد ذلك أيضاً فى مصر(٥) . ثم انتقل العيلاميون من هذه البدايات المعقدة إلى حياة السلطان والغزو ذات الأعباء الثقال ، فامتلكوا سومر وبابل ، ثم دارت عليهم الدائرة فاستولت عليهم هاتان الدولتان كلتاهما بعد الأخرى . وعاشت مدينة السوس ستة آلاف من السنين ، شهدت فى خلالها عظمة إمبراطوريات سومو ، وبابل ، ومصر ، وأشور ، وفارس ، واليونان ، ورومة ، وظلت ، باسم شوشان ، مدينة مزدهرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى . ومرت بها فى خلال تاريخها الطويل فترات مختلفة نمت فيها ثروتها نموا عظيما . وحسبنا شاهداً على هذا وصف المؤرخين لما عثر عليه فيها أشور بانيبال حين استولى عليها ونهبها فى عام ٦٤٦ ق . م من ذهب وفضة وحجارة كريمة ، وجواهر ملكية ، وثياب ثمينة ، وأثاث فخم ، ومركبات ساقها الفاتحون وراءهم إلى نينوى ، ذكر المؤرخون هذه المغانم كلها ولم يحاولوا الانتقاص من شأنها أو الاستخفاف بها ، وهكذا بدأ التاريخ دورته المحزنة فبدلها فى وقت قصير من فنها المزدهر حرباً وخراباً

الفصل الثانى

السومريون

١ — تاريخهم

الكشف عن أرض سومر — جغرافيتها — أهلها وجنسيتهم — مظهرهم — الديوان السومرى — الملوك — مصلح قديم — سرجون ملك أكاد — عصر أور الذهبى

إذا عدنا إلى خريطة الشرق الأدنى وتتبعنا المجرى المشترك المكون من نهرى دجلة والفرات من مصبه فى الخليج الفارسى إلى أن ينفصل المجريان (عند بلدة القرنة الحديثة) ، ثم تتبعنا نهر الفرات متجهين إلى الغرب ، وجدنا فى شماله وجنوبه المدن السومرية القديمة المطمورة وهى : إريدو (أبوشهرين الحديثة) وأور (المُقَيَّر الحديثة) وأروك (وهى المسماة إرك فى التوراة والمعروفة الآن باسم الوركاء) ولارْسا (المسماة فى التوراة باسم الأسار والمعروفة الآن باسم سنكرة) ولكش (سيرلا الحديثة) ونپور (نفر) . تتبع بعدئذ نهر الفرات فى سيره نحو الشمال الغربى إلى بابل التى كانت فى يوم من الأيام أشهر بلاد الجزيرة (أرض ما بين النهرين) تجد إلى شرقها مباشرة بلدة كش مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم ، ثم سر مع النهر صعدا قرابة ستين ميلا حتى مقر أجاد قصبة مملكة أكَّد فى الأيام الخالية . ولم يكن تاريخ أرض الجزيرة القديم من إحدى نواحيه إلا صراعاً قامت به الشعوب غير السامية التى تسكن بلاد سومر لتحتفظ باستقلالها أمام الهجرات السامية والزحف السامى من كش وأجاد وغيرهما من مراكز العمران الشمالية . وكانت هذه الأجناس المختلفة الأصول فى خلال هذا الصراع تتعاون دون أن تشعر بتعاونها — ولعلها كانت تتعاون على الرغم منها — لتقيم صرح

حضارة هى أول ما عرف فى التاريخ من حضارة واسعة شاملة فذة ، وهى من أعظمها إبداعاً وإنشاء(*) .

وليس فى وسعنا رغم ما قام به العلماء من بحوث أن نعرف إلى أية سلالة من السلالات البشرية ينمى هؤلاء السومريون ، أو أى طريق سلكوه حتى دخلوا بلاد سومر . ومن يدرى لعلهم جاءوا من آسية الوسطى ، أو من بلاد القفقاس أو من أرمينية واخترقوا أرض الجزيرة من الشمال متتبعين فى سيرهم مجرى دجلة

(*) لقد كان كشف هذه الحضارة المنسية من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة فى علم الآثار . لقد كان الرومان واليونان واليهود ، وهم الذين نسميهم القدماء جهلا منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ ، لا يعرفون شيئاً عن سومر ، ولعل هيرودوت لم يصل إلى علمه شىء عن هؤلاء الأقوام ، وإذا كان قد وصل إلى علمه شىء منهم فقد أغفل أمرهم لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا . ولم يكن ما يعرفه بروسس ، وهو مؤرخ بابلى كتب حوالى ٢٥٠ ق . م عن سومر إلا مزيجاً من الخرافات والأساطير . فقد وصف فى تاريخه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى أوانس خرج من الخليج الفارسى ، وأدخل فى البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بنى الإنسان كل الأشياء التى تصلح أمور حياتهم ولم يخترع من ذلك الوقت شىء ما حتى الآن »(٦) . ولم تكشف بلاد سومر إلى العالم إلا بعد ألفى سنة مما كتبه عنها بروسس . فقد تبين هنكز فى عام ١٨٥٠ أن كتابة مسمارية — تكتب بضغط قلم معدنى ذى طرف دقيق على طين لين ، وتستخدم فى لغات الشرق الأدنى السامية — أن كتابة من هذا النوع قد أخذت عن أقوام أقدم عهداً من الساميين الذين استعملوها فيما بعد كانوا يتكلمون لغة كثرة ألفاظها غير سامية . وقد أطلق أوبرت على الشعب الذى ظنه صاحب هذه الكتابة اسم الشعب « السومرى »(٧) . وكشف رولنسن ومساعدوه فى نفس الوقت تقريباً بين الخرائب البابلية ألواحاً نقشت عليها كلمات من هذه اللغة القديمة وبين سطورها ترجمتها إلى اللغة البابلية كما يفعل علماء الجامعات فى هذه الأيام(٨) . وفى عام ١٨٥٤ أزاح عالمان إنجليزيان الثرى عن مواقع مدن أور ، وإريدو ، وأرك . وكشف العلماء الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر عن أنقاض لكش وعثروا بينها على ألواح نقش عليها تاريخ الملوك السومريين ، وفى أيامنا هذه كشف ولى الأستاذ بجامعة بنسلفانيا وكثيرون غيره من العلماء عن مدينة أور العتيقة حيث أنشأ السومريون كما يلوح حضارة لهم قبل عام ٤٥٠٠ ق . م : وهكذا تعاون العلماء من مختلف الأمم على كشف السر الغامض من تلك القصة العجيبة التى لا آخر لها . وأخذوا يتعقبون الحقائق التاريخية بلا ملل تعقب رجال الشرطة السرية للصوص والمجرمين . على أننا مع هذا لم نعد بعد بداية البحث والتنقيب فى بلاد سومر . ولسنا ندرى ماذا يسفر عنه هذا البحث من حضارة ومن معلومات تاريخية ، بعد أن تحفر الأرض وتدرس المواد المستكشفة كما حفر العلماء أرض مصر ودرسوا آثارها فى خلال المائة السنين الأخيرة .

والفرات — حيث توجد — كما فى أشور مثلا — شواهد دالة على ثقافتهم الأولى ؛ أو لعلهم قد سلكوا الطريق المائى من الخليج الفارسى — كما تروى الأساطير — أو من مصر أو غيرها من الأقطار ، ثم اتخذوا سبيلهم نحو الشمال متتبعين على مهل النهرين العظيمين ، أو لعلهم جاءوا من السوس حيث يوجد بين آثارها رأس من الأسفلت فيه خواص الجنس السومرى كلها . بل إن فى وسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا كله فنقول إنهم قد يكونون من أصل مغولى قديم موغل فى القدم . ذلك بأن فى لغتهم كثيراً من التراكيب الشبيهة بلسان المغول(٩) لكن علم هذا كله عند علام الغيوب .

وتدل آثارهم على أنهم كانوا قصار القامة ممتلئى الجسم ، لهم أنوف شم مصفحة ليست كأنوف الأجناس السامية ، وجباه منحدرة قليلا إلى الوراء ، وعيون مائلة إلى أسفل . وكان كثيرون منهم ملتحين ، وبعضهم حليقين ، وكثرتهم العظمى يحفون شواربهم . وكانوا يتخذون ملابسهم من جلود الغنم ، ومن الصوف المغزول الرفيع ، وكانت النساء يسدلن من أكتافهن اليسرى مآزر على أجسامهن ، أما الرجال فكانوا يشدونها على أوساطهم ويتركون الجزء الأعلى من أجسامهم عارياً . ثم علت أثواب الرجال مع تقدم الحضارة شيئاً فشيئاً حتى غطت جسمهم كله إلى الرقبة . أما الخدم رجالا كانوا أو نساء فقد ظلوا يمشون عراة من الرأس إلى وسط الجسم إذا كانوا فى داخل البيوت . وكانوا فى العادة يلبسون قلانس على رءوسهم وأخفافاً فى أقدامهم ، ولكن نساء الموسرين منهم كن ينتعلن أحذية من الجلد اللين الرقيق غير ذات كعاب عالية ، وذات أربطة شبيهة بأربطة أحذيتنا فى هذه الأيام . وكانت الأساور والقلائد والخلاخيل والخواتم والأقراط زينة النساء السومريات التى يظهرن بها ثراء أزواجهن كما تظهره النساء الأمريكيات فى هذه الأيام(١٠) .

ولما تقدم العهد بمدنيتهم — حوالى ٢٣٠٠ ق . م حاول الشعراء والعلماء

السومريون أن يستعيدوا تاريخ بلادهم القديم ، فكتب الشعراء قصصاً عن بداية الخلق ، وعن جنة بدائية ، وعن طوفان مروع غمر هذه الجنة وخربها عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الأقدمين(١١) . وتناقل البابليون والعبرانيون قصة هذا الطوفان وأصبحت بعدئذ جزءاً من العقيدة المسيحية . وبينا كان الأستاذ وُلى ينقب فى خرائب أور عام ١٩٢٩ إذ كشف على عمق عظيم من سطح الأرض ، عن طبقة من الغرين سمكها ثمان أقدام ، رسبت — إذا أخذنا بقوله — على أثر فيضان مروع لنهر الفرات ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ومعروفاً لديهم باسم الطوفان . وقد وجدت تحت هذه الطبقة بقايا حضارة قامت قبل هذا الطوفان ، وصفها الشعراء فيما بعد بأنها العصر الذهبى لتلك البلاد .

وحاول الكهنة المؤرخون فى هذه الأثناء أن يخلقوا ماضياً يتسع لنمو جميع عجائب الحضارة السومرية فوضعوا من عندهم قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين ، ورجعوا بالأسرة المالكة التى حكمت قبل الطوفان إلى ٤٣٢٠٠٠ عام(١٢) ، ورووا عن اثنين من هؤلاء الحكام وهما تمور وجلجميش من القصص المؤثرة ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة فى الأدب البابلى . أما تموز فقد انتقل إلى مجمع الآلهة البابليين وأصبح فيما بعد أدنيس اليونان . ولعل الكهنة قد تغالوا بعض الشىء فى قدم حضارتهم ، ولكن فى وسعنا أن نقدر عمر الثقافة السومرية تقديراً تقريبياً إذا لاحظنا أن خرائب نيبور تمد إلى عمق ست وستين قدماً ، وأن ما يمتد منها أسفل آثار سرجون ملك أكد يكاد يعدل ما يمتد فوق هذه الآثار إلى أعلى الطبقات الأرضية (أى إلى بداية القرن الأول من التاريخ الميلادى) .

وإذا حسبنا عمر نيبور على هذا الأساس رجع بنا إلى عام ٥٢٦٢ ق . م. ويلوح أن أسراً قوية من ملوك المدن مستمسكة بعروشها قد ازدهرت فى كش حوالى عام ٤٥٠٠ ق . م وفى أور حوالى ٣٥٠٠ ق . م وإنا لنجد فى التنافس الذى قام بين هذين المركزين الأولين من مراكز الحضارة القديمة أول دور من

أدوار النزاع بين السامية وغير السامية ، وهو النزاع الذى يكوّن فى تاريخ الشرق الأدنى مأساة دموية متصلة تبدأ من عهد عظمة كش السامية وتستمر خلال فتوح الملكين الساميين سرجون الأول وحمورابى إلى استيلاء القائدين الآريين قورش والإسكندر على بابل فى القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، وإلى اصطراع الصليبيين والمسلمين لامتلاك قبر المسيح ، وإلى التسابق التجارى ، وتمتد إلى هذا اليوم الذى يحاول فيه البريطانيون جاهدين أن يسيطروا على الأقوام الساميين المنقسمين على أنفسهم فى الشرق الأدنى وينشروا السلام فى ربوعه .

وبعد عام ٣٠٠٠ ق . م . تروى السجلات المكونة من ألواح الطين التى كان الكهنة يحتفظون بها ، والتى وجدت فى خرائب أور ، قصة دقيقة دقة لا بأس بها عن قيام ملوك المدائن وتتويجهم وانتصارهم غير المنقطع وجنائزهم الفخمة فى مدن أور ولكش وأرك وما إليها . وما أكثر ما غالى المؤرخون فى هذا الوصف ، لأن كتابة التاريخ وتحيز المؤرخين من الأمور التى يرجع عهدها إلى أقدم الأزمان . وكان واحد من هؤلاء الملوك وهو أوروكاچينا ملك لكش ملكا مصلحاً ومستبداً مستنيراً ، أصدر المراسيم التى تحرم استغلال الأغنياء للفقراء واستغلال الكهنة لكافة الناس . وينص أحد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب « ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب أو يستولى على ضريبة من الفاكهة » . وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه ، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية . وكان مما يباهى به الملك أنه « وهب شعبه الحرية » وما من شك فى أن الألواح التى سجلت فيها مراسيمه تكشف عن أقدم القوانين المعروفة فى التاريخ وأقلها ألفاظاً وأكثرها عدلا .

واختتمت هذه الفترة الواضحة من تاريخ أور كما تختتم فى العادة مثيلاتها من الفترات على يد رجل يدعى لوجال — زجيزى ، غزا لكش ، وأطاح بأور وكاچينا

ونهب المدينة وهى فى أوج عزها ورخائها ، وهدم معابدها . وذبح أهلها فى الطرقات ، وساق أمامه تماثيل الآلهة أسيرة ذليلة : ومن أقدم القصائد المعروفة فى التاريخ قصيدة كتبت على لوح من الطين لعل عمرها يبلغ ٤٨٠٠ سنة يرثى فيها الشاعر السومرى دِنْجِيرِدّامو انتهاب إلهة لكش ويقول فيها :

وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على المدينة وعلى الكنوز .
وا أسفاه ! إن نفسى لتذوب حسرة على مدينتى جرسو (لكش) وعلى الكنوز .

إن الأطفال فى جرسو المقدسة لفى بؤس شديد
لقد استقر (الغازى) فى الضريح الأفخم
وجاء بالملكة المعظمة من معبدها .
أى سيدة مدينتى المقفرة الموحشة متى تعودين ؟(١٥)

ولا حاجة بنا إلى الوقوف عند السفاح لوجال — زجيزى وغيره من الملوك السومريين ذوى الأسماء الطنانة الرنانة أمثال لوجال — شجنجور ، ولوجال — كيجوب — تدوده ، وننيجى — دبتى ، ولوجال — أندرنوجنجا . . . .
وفى هذه الأثناء كان شعب آخر من الجنس السامى قد أنشأ مملكة أكد بزعامة سرجون الأول ، واتخذ مقر حكمه فى مدينة أجاد على مسيرة مائتى ميل أو نحوها من دول المدن السومرية من ناحية الشمال الغربى. وقد عثر فى مدينة سومر على أثر ضخم مكون من حجر واحد يمثل سرجون ذا لحية كبيرة تخلع عليه كثيراً من المهابة ، وعليه من الثياب ما يدل على الكبرياء وعظيم السلطان . ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك : فلم يعرف التاريخ له أباً ، ولم تكن والدته غير عاهر من عاهرات المعابد(١٦) : ولكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة رويتها على لسانه شبيهة فى بدايتها بسيرة موسى ، فهو يقول : وحملت بى أمى الوضيعة الشأن ، وأخرجتنى إلى العالم سراً ووضعتنى فى قارب من الأسل كالسلة ، وأغلقت علىّ

الباب بالقار »[١٧] . وأنجاه أحد العمال ، وأصبح فيما بعد ساقى الملك ، فقربه إليه وزاد نفوذه وسلطانه ، ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على عرش أجاد ، وسمى نفسه « الملك صاحب السلطان العالمى » وإن لم يكن يحكم إلا قسما صغيراً من أرض الجزيرة . ويسميه المؤرخون سرجون « الأعظم » لأنه غزا مدناً كثيرة ، وغنم مغانم عظيمة ، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق . وكان من بين ضحاياه لوجال — زنجيزى نفسه الذى نهب لكش وانتهك حرمة إلاهتها ، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نيور . وأخذ هذا الجندى الباسل يخضع البلاد شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً فاستولى على عيلام وغسل أسلحته فى مياه الخليج الفارسى العظيم رمزاً لانتصاراته الباهرة ، ثم اجتاز غرب آسية ووصل إلى البحر المتوسط[١٨] وأسس أول إمبراطورية عرفها التاريخ ، وظل يحكمها خمسا وخمسين سنة ، وتجمعت حوله الأساطير فهيأت عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً . وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة فى جميع أنحاء دولته .

وخلفه ثلاثة من أبنائه كل منهم بعد أخيه . وكان ثالثهم نارام — سِن بنَّاء عظيما وإن لم يبق من أعماله كلها إلا لوحة تذكارية تسجل انتصاره على ملك خامل غير ذى شأن . وقد عثر ده مورجان على هذه اللوحة ذات النقش البارز فى مدينة السوس عام ١٨٩٧ ، وهى الآن من كنوز متحف اللوفر ، وتمثل نارام — سن رجلا مفتول العضلات ، مسلحاً بالقوس والسهام ، يطأ بقدميه فى خيلاء الملوك أجسام من ظفر بهم من أعدائه ويدل مظهره على أنه يتأهب لأن يرد بالموت العاجل على توسل أعدائه المنهزمين واسترحامهم . وصوِّر بين هؤلاء الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر ، وتطل هذا المنظر من خلفه جبال زجروس . وقد سجل انتصار نارام — سن على أحد التلال بكتابة مسمارية جميلة . وتدل هذه اللوحة على أن فن النحت قد توطدت وقتئذ قواعده وأصبحت له تقاليد مرعية طويلة الأمد .

على أن إحراق مدينة من المدن لا يكون فى جميع الأحوال من الكوارث الأبدية التى تبتلى بها ، بل كثيراً ما يكون نافعاً لها من الناحيتين العمرانية والصحية وهذه القاعدة تنطبق على لكش فى ذلك العهد ، فقد ازدهرت هذه

(شكل ٥) « جوديا الصغير »
تمثاله فى متحف اللوفر

المدينة من جديد قبل أن يحل القرن السادس والعشرون قبل الميلاد ، وذلك فى عهد ملك آخر مستنير يدعى جوديا تعد تماثيله القصيرة المكتنزة أشهر ما بقى من آثار فن النحت السومرى ، وفى متحف اللوفر تمثال له من حجر الديوريت يمثله فى موقف من مواقف التقوى ورأسه ملفوف بعصابة ثقيلة كالتى نشاهدها فى التماثيل المقامة فى مسرح الكلوسيوم ، ويداه مطويتان فى حجره ، وكتفاه

وقدماه عارية وساقاه قصيرتان ضخمتان يغطيهما ثوب نصفى مطرز بطائفة كبيرة من الكتابة المقدسة . وتدل ملامحه القوية المتناسبة على أنه رجل مفكر ، عادل ، حازم ، دمث الأخلاق . وكان رعاياه يجلونه ، لا لأنه جندى محارب ، بل لأنه فيلسوف مفكر أشبه ما يكون بالإمبراطور ماركس أورليوس الرومانى ، يختص بعنايته الشؤون الدينية والأدبية والأعمال النافعة الإنشائية ، شاد المعابد ، وشجع دراسة الآثار القديمة بالروح التى تدرسها بها البعثات التى كشفت عن تمثاله ، ويحد من سلطان الأقوياء رحمة بالضعفاء . ويفصح نقش من نقوشه التى عثر عليها عن سياسته التى من أجلها عبده رعاياه واتخذوه إلها لهم بعد موته : « فى خلال سبع سنين كانت الخادمة ندًّا لمخدومتها ، وكان العبد يمشى بجوار سيده ، واستراح الضعيف فى بلدى بجوار القوى »(١٩) .

وفى هذه الأثناء كانت « أور مدينة الكلدان » تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء وازدهاراً ، امتد من عام ٣٥٠٠ ق . م (وهو على ما يلوح عهد أقدم مقابرها) إلى عام ٧٠٠ ق . م . وأخضع أعظم ملوكها أور — أنجور جميع بلاد آسية الغربية ونشر فيها لواء السلام ، وأعلن فى جميع الدولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون فى تاريخ العالم . وفى ذلك يقول : « لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين شمش الصالحة العادلة »(٢٠) . ولما زادت ثروة أور بفضل التجارة التى انصبت إليها صبا عن طريق نهر الفرات فعل فيها ما فعل بركليز بأثينة من بعده فشرع يجملها بإنشاء الهياكل ، وأقام فيها هى وغيرها من المدائن الخاضعة له أمثال لارسا وأوروك ونيور كثيراً من الأبنية ، وواصل ابنه دنجى طوال حكمه الذى دام ثمانية وخمسين عاماً أعمال أبيه ، وحكم البلاد حكماً عادلا حكيما ، جعل رعاياه يتخذونه من بعد موته إلها : ويصفونه بأنه الإله الذى أعاد إليهم جنتهم القديمة .

لكن سرعان ما أخذ هذا المجد يزول ، فقد انقض على أور التى كانت تنعم

وقتئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهلُ عيلام ذوو الروح الحربية من الشرق ، والعموريون الذين علا شأنهم وقتئذ من الغرب ، وأسروا مَلكها ، ونهبوها ودمروها شر تدمير . وأنشأ شعراء أور القصائد التى يندبون فيها انتهاب تمثال إشتار أمهم الإلهة المحبوبة التى انتزعها من ضريحها الغزاة الآثمون . ومن الغريب أن هذه القصائد التى صيغت فى صيغة المتكلم ، وأسلوبها مما لا تسر منه آذان الأدباء السوفسطائيين ، ولكننا على الرغم من هذا نحس من خلال الأربعة الآلاف من السنين التى تفصل بيننا وبين الشاعر السومرى بما حل بالمدينة وأهلها من خراب وتدمير . يقول الشاعر :

لقد انتهك العدو حرمتى بيديه النجستين .
انتهكت يداه حرمتى وقضِيَ علىَّ من شدة الفزع .
آه ، ما أتعس حظى ! إن هذا العدو لم يظهر لى شيئاً من الاحترام ،
بل جرّدنى من ثيابى وألبسها زوجه هو ،
وانتزع منى حلي وزين بها أخته ،
وأنا (الآن) أسيرة فى قصوره — فقد أخذ يبحث عنى
فى ضريحى — واحسرتاه . لقد كنت أرتجف من هول اليوم الذى أخرج فيه :
فقد أخذ يطاردنى فى هيكلى ، وقذف الرعب فى قلبى ،
هناك بين جدران بيتى ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط
على رافدة ، أو كالبومة الصغيرة اختبأت فى كهف .
وأخذ يطاردنى فى ضريحى كما يطارد الطير ،
طاردنى من مدينتى كما يطارد الطير وأنا أتحسر وأنادى :
« إن هيكلى من خلفى ، ما أبعد المسافة بينه وبينى »[٢١] .

وهكذا ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين مائتى عام تبدو لأعيننا كأنها لحظة لا خطر لها .

ثم أقبل من الشمال حمورابى العظيم ملك بابل واستعاد من العيلاميين أوزك وإيسين ، وظل ساكناً ثلاثاً وعشرين سنة غزا بعدها ببلاد عيلام ، وقبض على ملكها ، وبسط حكمه على عمور وأشور النائية ، وأنشأ إمبراطورية لم يعهد التاريخ من قبل لها مثيلا فى قوتها ، وسن لها قانوناً عاماً نظم شئونها . وظل الساميون بعد ذلك الوقت قروناً كثيرة يحكمون ما بين النهرين حتى قامت دولة الفرس ، فلم نعد نسمع بعدئذ شيئاً عن السومريين إذ طويت صحفهم القليلة فى كتاب التاريخ .

٢ — الحياة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — طبقات الناس — العلوم

انقضى عهد السومريين ، ولكن حضارتهم لم يقض عليها ، فقد ظلت سومر وأكد تخرجان صناعا وشعراء وفنانين وحكماء ورجال دين ، وانتقلت حضارة المدن الجنوبية إلى الشمال على طول مجرى الفرات ودجلة حتى وصلت إلى بلاد بابل وأشور ، وكانت هى التراث الأول لحضارة الجزيرة .

وكان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التى أخصبها فيضان النهرين السنوى ، وهو الفيضان الناشئ من سقوط الأمطار الشتوية . وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً ، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جرياناً أميناً فى قنوات للرى تخترق البلاد طولا وعرضا ، وقد خلدوا أخطاره الأولى بالقصص التى تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر عنها آخر الأمر ونجا الناس من شره[٢٣] . وكان نظام الرى المحكم الذى يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية فى الحضارة السومرية ، وما من شك فى أنه كان أيضاً الأساس الذى قامت عليه . فقد أخرجت الحقول التى عنوا بريها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح والبلح والخضر الكثيرة

المختلفة الأنواع ، وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران كما كانت تجره فى بلادنا حتى الأمس القريب. وكان يتصل به أنبوبة مثقوبة لبذر البذور ؛ وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الظران تفتت القش ليكون علفا للماشية ، وتفصل منه الحب ليكون طعاماً للناس(٢٤) .

والقد كانت هذه الثقافة ثقافة بدائية من نواح كثيرة . فقد كان السومريون يستخدمون النحاس والقصدير ، وكانوا يخلطونهما فى بعض الأحيان ليضعوا منهما البرنز ، وبلغ من أمرهم أنهم كانوا من حين إلى حين يصنعون من الحديد آلات كبيرة(٢٥) . ولكن المعادن مع هذا كانت نادرة الوجود قليلة الاستعمال ، وكانت كثرة الآلات السومرية تتخذ من الظران ، وبعضها ، كالمناجل التى يقطع بها الشعير ، يصنع من الطين ؛ أما الدقيق منها كالأبر والمثاقب فكان يصنع من العاج والعظام(٢٦) . وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون يعينهم الملك(٢٧) على أحدث طراز من الإشراف الحكومى على الصناعات عرف حتى الآن . وكانت البيوت تبنى من الغاب تعلوه لبنات من الطين والقش تعجن بالماء وتجفف فى الشمس . ولا يزال من اليسير العثور على منازل من هذا الطراز فى الأرض التى كانت من قبل بلاد سومر ، وكان لهذه الأكواخ أبواب من الخشب تدور فى أوقاب منحوتة فى الحجارة ، وكانت أرضها عادة من الطين ، وسقفها مقوسة تصنع من الغاب المثنى إلى أعلى ، أو مستوية مصنوعة من الغاب المغطى بالطين المبسوط فوق دعامات من الخشب وكانت البقر والضأن والمعز والخنازير تجول فى المساكن فى رفقة الإنسان البدائية . وكان ماء الشرب يؤخذ من الآبار(٢٨) .

وأكثر ما كانت تنقل البضائع بطريق الماء وإذا كانت الحجارة نادرة الوجود فى بلاد سومر فقد كانت تنقل إليها من خارج البلاد عن طريق الخليج الفارسى أو من أعالى النهرين ، ثم تحمل فى القنوات إلى أرصفة المدن النهرية .

لكن النقل البرى أخذ ينمو وينتشر ، وشاهد ذلك ما كشفته بعثة أكسفورد فى كش من مركبات هى أقدم ما عرف من المركبات ذات العجلات فى تاريخ العالم(٢٩) ؛ وقد عثر فى أماكن متفرقة على أختام يستدل منها على وجود صلات تجارية بين سومر وبين مصر والهند(٣٠) . ولم تكن النقود قد عرفت فى ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تتبادل عادة بطريق المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى فى ذلك الوقت البعيد لتقدير قيم البضائع ، وكانا يقبلان فى العادة بدلا من البضائع نفسها — إما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة وإما بكميات تقدر قيمتها حسب وزنها فى كل صفقة تجارية . وكانت الطريقة الثانية أكثر الطريقتين استعمالا . وإن كثيراً من ألواح الطين التى وصلت إلينا وعليها بعض الكتابة السومرية لهى وثائق تجارية تكشف عن حياة تجارية جمة النشاط . ويتحدث لوح من هذه الألواح فى لغة تدل على الملل والسآمة عن « المدينة التى تعج بضوضاء الإنسان » . وكان لديهم عقود مكتوبة موثقة يشهد عليها الشهود ، ونظام للائتمان تقرض بمقتضاه البضائع والذهب والفضة ، تؤدى عنها فوائد عينية يختلف سعرها من ٢٥ ٪ إلى ٣٣ ٪ فى السنة(٣١) . ولما كان استقرار المجتمع يتناسب إلى حد ما تناسباً عكسياً مع سعر الفائدة فإن لنا أن نفترض أن التجارة السومرية كانت كتجارتنا يحيط بها جو من الارتياب والاضطراب الاقتصاديين والسياسيين .

وقد وجدت فى المقادير كميات كبيرة من الذهب والفضة منها ما هو حلى ومنها ما هو أوان وأسلحة وزخارف ، بل إن منها ما هو عدد وآلات . وكان أهل البلاد الأغنياء منهم والفقراء ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة ، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم وحقوق الملكية مقدسة لديهم(٣٢) . ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال وطلاب العلم والأطباء والكهنة وقد علا شأن الطب عندهم فكان لكل داء دواء خاص ، ولكنه ظل يختلط

بالدين ويعترف بأن المرض لا يمكن شفاؤه إلا إذا طردت الشياطين من أجسام المرضى ، لأن الأمراض إنما تنشأ من تقمصها هذه الأجسام . وكان لديهم تقويم ، لا نعرف متى نشأ ولا أين نشأ ، تقسم السنة بمقتضاه إلى اثنى عشر شهراً قمرياً يزيدونها شهراً فى كل ثلاثة أعوام أو أربعة حتى يتفق تقويمهم هذا مع فصول السنة ومع منازل الشمس . وكانت كل مدينة تسمى هذه الأشهر بأسماء خاصة(٣٣) .

٣ — نظام الحكم

الملوك — الخطط الحربية — أمراء الإقطاع — القانون

والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها ، تعض عليه بالنواجذ ، وتستمتع بملك خاص بها تسميه پاتيسى أو الملك — الكاهن فتدل بهذه التسمية نفسها على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين ، وما وافى عام ١٨٠٠ ق . م حتى نمت التجارة نمواً جعل هذا الانفصال بين المدن أمراً مستحيلا ، فنشأت منها جميعاً « إمبراطوريات » استطاعت فيها شخصية قوية عظيمة أن تخضع المدن والملوك — الكهنة لسلطانها ، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية . وكان هذا الملك الأعظم صاحب السلطان المطلق يحيط به جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط الملوك فى عصر النهضة الأوربية . ذلك بأنه كان معرضاً فى كل وقت إلى أن يقضى عليه بنفس الوسائل التى قضى بها على أعدائه وارتقى بها عرشه . وكان يعيش فى قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما للدخول أكثر من شخص واحد فى كل مرة . وكان عن يمين المدخل وشماله مخابئ يستطيع من فيها من الحراس السريين أن يفحصوا عن كل زائر أو ينقضوا عليه بالخناجر(٣٤) . بل إن هيكل الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مختفياً فى قصره يستطيع أن يؤدى فيه واجباته الدينية دون أن تراه الأعين ، أو أن يغفل أداءها دون أن يعرف الناس شيئاً عن هذا الإغفال .

وكان الملك يخرج إلى الحرب فى عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسى والسهام والحراب . . وكانت الحرب تشق لأسباب صريحة هى السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية ، فلم يكن يخطر لهم ببال أن يستروا هذا الغرض بستار من الألفاظ يخدعون بها أصحاب المثل العليا . من ذلك أن منشتوسو ملك أكد أعلن فى صراحة أنه يغزو بلاد عيلام ليستولى على ما فيها من مناجم الفضة ، وليحصل منها على حجر الديوريت لتصنع منه التماثيل التى تخلد ذكره فى الأعقاب — وتلك هى الحروب الوحيدة فى التاريخ التى تخوضها الجيوش لأغراض فنية . وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً ، فإذا لم يكن فى بيعهم ربح ذبحوا ذبحاً فى ميدان القتال . وكان يحدث أحياناً أن يقدم عشر الأسرى قرباناً إلى الآلهة المتعطشة للدماء ، فيقتلوا بعد أن يوضعوا فى شباك لا يستطيعون الإفلات منها . وقد حدث فى هذه المدن ما حدث بعدئذ فى المدن الإيطالية فى عصر النهضة ، فكانت النزعة الانفصالية التى تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن فيها ، ولكنها كانت كذلك باعثاً على العنف والنزاع الداخلى ، فأدت هذا إلى ضعف الدويلات جميعها وإلى سقوط بلاد سومر بأكملها(٣٥) .

وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعى فى الإمبراطورية السومرية ، فقد كان عقب كل حرب يُقطع الزعماء البواسل مساحات واسعة من الأرض ويعفيها من الضرائب . وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام فى إقطاعاتهم ، ويقدموا للملك حاجته من الجند والعتاد . وكانت موارد الحكومة تتكون من الضرائب التى تجبى عيناً وتختزن فى المخازن الملكية وتؤدى منها مرتبات موظفى الدولة وعمالها(٣٦) .

وكان يقوم إلى جانب هذا النظام الملكى الإقطاعى طائفة من القوانين تستند إلى سوابق كثيرة من عهد أور — أنجور ودنجى اللذين جمعا قوانين أور ودوناها ،

فكانت هى المعين الذى استمد منه حمورابى شريعته الذائعة الصيت . وكانت تلك الشرائع أبسط وأكثر بدائية من الشرائع اللاحقة ، ولكنها كانت أيضاً أقل منها قسوة .

مثال ذلك أن الشرائع السامية تقضى بقتل الزوجة إذا زنت ، أما الشريعة السومرية فكل ما تجيزه أن تسمح للزوج بأن يتخذ له زوجة ثانية ، وأن ينزل الزوجة الأولى منزلة أقل من منزلتها السابقة(٢٧) . والقانون السومرى يشمل العلاقات التجارية كما يشمل العلاقات الزوجية والجنسية بوجه عام ، وينظم شئون القروض والعقود ، والبيع والشراء ؛ والتبنى والوصية بكافة أنواعها . وكانت المحاكم تعقد جلساتها فى المعابد وكان معظم قضاتها من رجال الدين ، أما المحاكم العليا فكان يعيّن لها قضاة فنيون مختصون . وخير ما فى القانون كله هو النظام الذى وضعه لتجنب التقاضى ، ذلك أن كل نزاع كان يعرض أوّلا على محكّم عام واجبه أن يسويه بطريقة ودية دون أن يلجأ المتنازعون إلى حكم القانون(٢٨) ، فها هى ذى مدنية بدائية يجدر بنا أن نتلقى منها درساً نصلح به مدنيتنا .

٤ — الدين والأخلاق

مجمع الآلهة السومرية — طعام الآلهة — الأساطير — التعليم — صلاة سومرية — عاهرات المعابد — حقوق المرأة — أدهنة الشعر والوجه

نشر أور — أنجور فى البلاد شرائعه باسم الإله الأعظم شمش ، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما فى الالتجاء إلى الدين من فوائد سياسية . فلما أن أصبح الآلهة ذوى فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ، ولكل ولاية ، ولكل نوع من النشاط البشرى ، إله موح مدبر . وكانت عبادة الشمس قد تقادم عهدها حين نشأت بلاد سومر ، وكان مظهرها عبادة شمش « نور الآلهة » الذى كان يقضى الليل فى الأعماق الشمالية حتى يفتح

له الفجر أبوابه فيصعد فى السماء كاللهب ويضرب بعربته فى أعماق القبة الزرقاء ؛ ولم تكن الشمس إلا عجلة فى مركبته النارية(٣٩) . وشيدت مدينة نپور المعابد العظيمة للإله إنليل ولصاحبته ننهيل ، وأكثر ما كانت تعبُد أوروك إلهة إنينى العذراء إلهة الأرض والمعروفة لدى أهل أكّد الساميين باسم إستير ، والتى تشبه عند أهل الشرق الأدنى أفروديتى — دمير الفاجرة الغمليجة عند الغربيين . وعبدت مدينتا كش ولكش أمًّا لهما حزينة هى الإلهة ننكرساج التى أحزنها شقاء البشر فأخذت تشفع لهم عند الآلهة الذين كانوا أشد منها قسوة(٤٠) ؛ وكان تنجرسو إله الرّىّ و« ربّ الفيضانات» . وكان أبو أوتموز إله الزرع ؛ وكان سِنْ إله القمر ، وكانوا يمثلونه فى صورة إنسان يعلو رأسه هلال أشبه شىء بالهالات التى تحيط برءوس القديسين فى العصور الوسطى ، وكان الهواء كله فى زعمهم مملوءاً بالأرواح — منها ملائكة خيّرون لكل سومرى ملك منهم يحميه ، ومنها أرواح خبيثة أو شياطين تعمل جاهدة لطرد الروح الخير الواقى وتقمص جسم الآدمى وروحه .

وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقرب لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج ، وتنص ألواح جوديا على الأشياء التى ترتاح لها الآلهة وتفضلها عن غيرها ، ومنها الثيران ، والمعز ، والضأن ، واليمام ، والدجاج ، والبط ، والسمك ، والبلح ، والتين ، والخيار ، والزبد ، والزيت ، والكعك(٤١) . ولنا أن نستدل من هذا الثبت على أن الموسرين من أهل البلاد كانوا يتمتعون بالكثير من أصناف الطعام ، ويلوح أن الآلهة كانوا فى بادئ الأمر يفضلون لحم الآدميين ، فلما ارتقت أخلاق الناس لم يجدوا بدا من الاقتناع بلحم الحيوان .

وقد عثر فى الحرائب السومرية على لوحة نقشت عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذر الدينية الغريبة : « إن الضأن فداء للحم الآدميين ، به افتدى الإنسان حياته »(٤٢) ، وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة فى المدن السومرية ، وحتى كانوا هم الحكام

المتصرفين فى الشئون ، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أى حد كان الپاتيسى كاهناً ، وإلى أى حد كان ملكا .

فلما أسرف الكهنة فى ابتزاز أموال الناس نهض اورو كاچينا كما نهض لوثر فيما بعد ، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم ، ويتهمهم بالرشوة فى توزيع العدالة ، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم . وأفلح وقتاً ما فى تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين ، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التى تؤدى للمعابد ، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز ، ووضع الشرائع التى تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك(٤٣) . لكن العالم كان قد عمر حتى شاخ ، وتأصلت فيه الأساليب القديمة التى غشّاها الزمان بشىء من التبجيل والتقديس .

واستعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أورو — كاچينا كما استعادوا سلطانهم فى مصر بعد موت إخناتون ، ذلك أن الناس لا يترددون فى أن يؤدوا أغلى الأثمان لكى يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم ، وكانت جذور الأساطير الدينية حتى فى ذلك العهد السحيق قد أخذت تتأصل فى العقول ، ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، لأن الطعام والأدوات كانت تدفن مع الموتى فى القبور(٤٤) ، ولكنهم كانوا يصورون الدار الآخرة ، كما صوروها اليونان من بعدهم ، عالماً مظلماً تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخالد ، قد استقرت بعد فى عقولهم ، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً « فى الحياة الخالدة » ، بل كانوا يتقدمون بهما طمعاً فى النعم المادية الملموسة فى الحياة الدنيا(٤٥) .. وتصف إحدى الأساطير المتأخرة كيف علمت إى إلهة الحكمة أداباً حكيمَ إريدو جميع العلوم ، ولم تخف عنه من أسرارها إلا سراً واحداً — هو سر الحياة الأبدية التى

لا تنتهى بالموت(٤٦) . وتقول أسطورة أخرى إن الآلهة خلقت الإنسان منعما سعيدا ، لكنه أذنب وارتكب الخطايا بإرادته الحرة ، فأرسل عليه طوفان عظيم عقاباً له على فعله ، فأهلك الناس كافة ولم ينج منه إلا رجل واحد هو تجتوج الحائك ، وإن تجتوج هذا خسر الحياة الخالدة والعاقبة لأنه أكل فاكهة شجرة محرمة(٤٧) .

وكان الكهنة يعلمون الناس العلوم ويلقنونهم الأساطير ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون من هذه الأساطير سبيلا إلى تعليم الناس ما يريدونه هم ، وإلى حكمهم والسيطرة عليهم . وكانت تلحق بمعظم الهياكل مدارس يعلم فيها الكهنة الأولاد والبنات الخط والحساب ، ويغرسون فى نفوسهم مبادئ الوطنية والصلاح ، ويعدون بعضهم للمهنة العليا مهنة الكتبة . ولقد بقيت لنا من أيامهم الألواح المدرسية وعليها جداول للضرائب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ، ومسائل الهندسة التطبيقية(٤٨) . ويستدل من أحد الألواح احتوية على خلاصة لتاريخ الإنسان الطبيعى على أن ما كان يتلقاه أطفال ذلك العهد من هذا العلم لم يكن أسخف كثيراً مما يتلقاه أبناؤنا فى هذه الأيام . فقد جاء فى هذا اللوح : « إن الإنسان فى أول خلقه لم يكن يعرف شيئاً عن خبز يؤكل أو ثياب تلبس ، فكان الناس يمشون مكبين على وجوههم ، يقتلعون الأعشاب بأفواههم ليقتاتوا بها كما تقتات بها الأغنام ، ويشربون الماء من حفر فى الأرض(٤٩) .

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين — وهو أول الأديان التى عرفها التاريخ — من نبل فى التعبير والتفكير ، ذلك الدعاء الذى يتضرع به الملك جوديا للإلهة « بو » راعية الكش ونصيرتها :

أى ملكتى ، أيتها الأم التى شيدت لكش
إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان ،
والعابد الذى تنظرين إليه تطول حياته ،
أنا ليس لى أم — فأنت أمى ،

وليس لى أب ــ فأنت أبى ؛ ؛ ؛ ؛
أى إلهتى بو ؟ إن عندك علم الخير ؛
وأنت التى وهبتنى أنفاس الحياة ،
وسأقيم فى كنفك أعظمك وأمجّدك ،
وأحتمى بحماك يا أمّاه(٥٠) .

وكان يتصل بالهياكل عدد من النساء منهن خادمات ، ومنهن سراري للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض ؛ ولم تكن الفتاة السومرية ترى شيئاً من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ، وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة ، وكان يحتفل بإدخال ابنته فى هذه الخدمة المقدسة ، ويقرّب القرابين فى هذا الاحتفال ، كما كان يقدم باثنة ابنته إلى المعبد الذى تدخله(٥١) .

وكان الزواج قد أصبح وقتئذ نظاماً معقداً تحوطه شرائع كثيرة . فكانت البنت إذا تزوجت تحتفظ لنفسها بما يقدمه أبوها من باثنة ؛ ومع أن زوجها كان يشترك معها فى القيام على هذه الباثنة ، فقد كان لها وحدها أن تقرر من يرثها بعد وفاتها . وكان لها من الحقوق على أولادها ما لزوجها نفسه ، وإذا غاب زوجها ولم يكن لها ابن كبير يقيم معها كانت تدير هى المزارع كما تدير البيت . وكان لها أن تشتغل بالأعمال التجارية مستقلة عن زوجها ، وأن تحتفظ بعبيدها أو تطلق سراحهم . وكانت تسمو أحياناً إلى منزلة الملكة كما سمت شوب ــ آد وتحكم مدينتها حكماً رحيما رغداً قوياً(٥٢) ، غير أ الرجل كان هو السيد المسيطر فى الأزمات جميعها وكان من حقه فى بعض الظروف أن يقتل زوجته أو يبيعها أمة وفاء لما عليه من الديون . وكان الحكم الأخلاقى على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقى على المرأة حتى فى ذلك العهد السحيق ، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما فى شئون الملكية والوراثة . فزنى الرجل كان يعد من النزوات التى يمكن الصفح عنها ،

أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام ، فقد كان ينتظر منها أن تلد لزوجها وللدولة كثيراً من الأبناء ، فإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده ، أما إذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة ، فكانت تقتل غرقاً . ولم يكن للأطفال شيء من الحقوق الشرعية ، وكان للآباء إذا تبرءوا منهم علناً أن يحملوا ولاة الأمور على نفيهم من المدينة(٥٣) .

غير أن نساء الطبقات العليا كن يحيين حياة مترفة ، وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات ؛ شأنهن فى هذا شأن النساء فى جميع الحضارات ، فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العاديات فى المقابر السومرية وقد كشف الأستاذ ولى فى قبر الملكة شوب ــ آد عن مدهنة صغيرة من دهنج(*) أزرق مشرب بخضرة ، وعلى دبابيس من الذهب رءوسها من اللازورد ، كما عثر أيضاً على مثبتة عليها قشرة من الذهب المخرم . وقد وجدت فى هذه المثبتة التى لا يزيد حجمها على حجم الخنصر ملعقة صغيرة لعلها كانت تستخدم فى أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة . وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة الجلد ، وملقط لعله كان يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر . وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب وكان أحدهما مطعما بفصوص من اللازَوَرْد ، وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد . وما أصدق المثل القائل إنه لا جديد تحت الشمس وإن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة ليتسع له سم الخياط .

(*) الدهنج كجعفر كالزمرد ويسمى أيضاً الملخيت Malachite . (المترجم)

(٣ قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ١)

• — الآداب والفنون

الكتابة — الأدب — الهياكل والقصور — صناعة التماثيل —
صناعة الفخار — الحلى — كلمة موجزة عن المدينة السومرية

الكتابة أروع ما خلفه السومريون ، ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيم الرقى ، صالحة للتعبير عن الأفكار المعقدة فى التجارة والشعر والدين . والنقوش الحجرية أقدم ما عثر عليه من النقوش ، ويرجع عهدها إلى عام ٣٦٠٠ ق . م[٥٤] ؛ وتبدأ الألواح الطينية فى الظهور حوالى ٣٢٠٠ ق . م . ويلوح أن السومريين قد بدءوا من ذلك الوقت يجدون فى هذا الكشف العظيم ما ترتاح له نفوسهم وما يفى بأغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا أن سكان ما بين النهرين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الأجل ، بل كتبوا على الطين الطرى ونقشوا عليه ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالإسفين . وكانوا فى ذلك جد مهرة ، فاستطاع كتابهم بفضل هذه المادة اللينة أن يحتفظوا بالسجلات ، ويدونوا العقود والمشارطات ، ويكتبوا الوثائق الرسمية ، ويسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع ، ويخلقوا من هذه كلها حضارة لم يكن القلم فيها أقل قوة من السيف ، وكان الكاتب إذا أتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطينى فى النار أو عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً أبقى على الدهر من الورق ، ولا يفوقه فى طول عمره إلا الحجر وحده . وكانت نشأة هـــذه الكتابة المسمارية وتطورها أعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية .

وتُقرأ الكتابة السومرية من اليمين إلى اليسار ؛ والبابليون فيما نعـــلم هم أول من كتب من اليسار إلى اليمين . ولعل الكتابة فى سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التى جرى بها العرف والتى كانت تصور وتنقش على الأوانى الخزفية السومرية البدائية(*) . وأكبر الظن أن الصور الأصلية قد صغرت وبسطت

(*) ارجع إلى ما قلناه عن الكتابة فى الجزء الأول .

خلال القرون الطوال وبسبب الرغبة فى سرعة كتابتها ، حتى أضحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف فى شكلها اختلافاً تاماً عن الأشياء التى كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للأصوات لا صوراً للأشياء . ولنضرب لهذا مثلا من اللغة العربية يوضح هذه الطريقة وهو صورة العين . فإذا افترضنا أن صورة العين قد صغرت وبسطت وصورت حتى لم يعد معناها العين نفسها بل كان هو الصوت الخاص الذى تمثله مع حركتها (وهو الفتحة فى هذه الحال) والذى ينطق به مع حروف أخرى فى كلمات مختلفة كالعسل مثلا ، كان هذا شبيهاً بما حدث فى اللغة السومرية(*) . ولم يخط السومريون الخطوة التالية فى هذا التطور فيجعلوا الرسم ممثلا للحرف وحده دون الحركة فيفصلوا الحركة عنه حتى يمكن استخدام العلامة الدالة على العين فى ألفاظ مثل عنب وعُرقوب ومَعْمل تختلف حركة العين فيها عن الفتحة . وظلت هذه الخطوة التى أحدثت انقلاباً عظيما فى طرق الكتابة حتى خطاها قدماء المصريين(٥٥) .

ويغلب على الظن أن الانتقال من الكتابة إلى الأدب تطلب عدة مئات من السنين . فقد ظلت الكتابة قروناً عدة أداة تستخدم فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، وقوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والإيصالات ونحوها ، ولعلها كانت بالإضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية . والإجراءات المنيعة فى الاحتفالات والمراسم ، والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لا تبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق . م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد أنشئ فى المدن السومرية . فقد كشف ده سرزاك فى مدينة تلو مثلا ،

(*) هذا المثل من وضعنا . وأما المؤلف فقد ضرب مثلا بحرف b الإنجليزى ومركبته bee (النحلة) ، being كائن . كذلك عدلنا الكلام فى الفقرة التالية حتى يتفق مع المثل العربى . والمعنى رغم هذا التغيير واحد ويوضح ما يرمى إليه المؤلف ، ولسنا نعد هذا تصرفا فى الترجمة بل نراه واجبا ضروريا للترجمة الصحيحة . (المترجم)

وفى أنقاض عمائر معاصرة لعهد جوديا . مجموعة مؤلفة من ثلاثين ألف لوح موضوعة بعضها فوق بعض فى نظام أنيق منطقى دقيق(٥٦) . وبدأ المؤرخون السومريون من عام ٢٠٠٠ ق . م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجىء بعدهم . ووصلت إلينا أجزاء من هذه السجلات ولكنها لم تصل إلينا فى صورتها الأصلية بل جاءتنا مقتبسة فى تواريخ المؤرخين البابليين ، على أن من بين ما بقى من هذه الكتب فى صورته الأصلية لوحاً عثر عليه فى نيور كتب عليه الأصل السومرى البدائى لملحمة جلجميش التى سندرسها فيما بعد فى الصورة التى تطورت إليها عند البابليين(٥٧) . وتحتوى بعض الألواح المحطمة مراثىَ ذات قوة لا بأس بها فى أسلوب أدبى خليق بالتقدير . وفى هذه الألواح تبدأ خاصة التكرار اللفظى الذى تمتاز به أغانى الشرق الأدنى ، فترى ألفاظاً بعينها تتكرر فى بداية السطور ، كما ترى كثيراً من الجمل تكرر المعنى الذى ذكر فى جمل سابقة أو توضحه ؛ وفى هذه الآثار التى نجت من عوادى الأيام ترى النشأة الدينية للأديب فى الأغانى والمراثى التى يرددها الكهنة . فلم تكن القصائد الأولى إذن أراجيز ولا أناشيد غزلية بل كانت صلوات وأدعية دينية .

وما من شك فى أن قروناً طويلة من النماء والتطور فى سومر وفى غيرها من البلاد قد سبقت هذه البدايات الثقافية الظاهرة ؛ فهذه الثقافات لم يبتدعها السومريون فى هذه الحقبة بل نمت عندهم وتطورت . وكما يبدو فى الكتابة أن السومريين قد ابتدعوا الخط المسمارى ، كذلك يبدو فى العمارة أنهم ابتدعوا الأشكال الأساسية للمنازل والهياكل والأعمدة والقباب والعقود(٥٨) . ويخيّل إلينا أن الفلاح السومرى كان فى أول الأمر ينشىء كوخه بأن يغرس الأعواد على هيئة مربع أو مستطيل أو دائرة ، ويثنى أعلاها حتى تجتمع ، ثم يربطها حتى يتكون منها قوس أو عقد أو قبة(٥٩) ؛ فكان ذلك هو البداية البسيطة أو المظهر الأول المعروف لهذه الأشكال الهندسية المعمارية . وقد عثر المنقبون فى

خرائب نپور على مجرى مائى معقود أنشئ منذ خمسة آلاف من السنين ، وعثر فى مقابر أور الملكية على عقود يرجع تاريخها إلى عام ٣٥٠٠ ق . م ، وكانت المداخل المعقودة مألوفة فى أور منذ عام ٣٠٠٠(٦٠) ق . م . وكانت عقودها عقوداً حقاً أى أن أحجارها كانت صَنْجية الرص — كل حجر منها على هيئة إسفين يتجه طرفه الرفيع إلى أسفل محكم الوضع فى مكانه .

أما الأغنياء من أهل المدن فكانوا يشيدون قصوراً يقيمونها على رُبى تعلو عن أرض السهل قرابة أربعين قدماً فى بعض الأحيان ، وكانوا يجعلونها منيعة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد ، وبذلك يستطيع كل عظيم سومرى أن يتخذ قصره حصناً له . وإذ كانت الحجارة نادرة الوجود فى تلك البلاد فقد كان أغلب هذه القصور يُبنى من الآجر ، وكانت الجدران الحمراء تغطى بحليات من الآجر نفسه ذات أشكال مختلفة — منها لوالب ، ومقرنصات ومثلثات ، ومنها معينات أو مشجرات ، وكانت الجدران الداخلية تغطى بالجص وتنقش نقشاً بسيطاً . وكانت الحجرات والمرافق تقام حول فناء يتى البيت وهج شمس البحر الأبيض وحرّها . ولهذا السبب عينه مضافاً إليه رغبة القوم فى الأمن من الأعداء كانت الحجرات تطل على هذا الفناء الداخلى بدل أن تطل على العالم الخارجى . أما النوافذ فكانت من الكماليات أو لعلهم كانوا فى غير حاجة إليها . وكانت المياه تؤخذ من الآبار ، وكان ثمة نظام واسع للمجارى وتصريف الفضلات من الأحياء المأهولة فى المدن . وكان أثاث البيوت قليلا بسيطاً ، ولكنه لم يكن يخلو من طابع الفن والذوق ، وكانت بعض الأسرّة تطعم بالمعادن أو بالعاج ، وكانت لبعض الكراسى السائدة أحياناً أرجل تنتهى بما يشبه مخالب السباع(٦١) على النحو الذى نشاهده فى كراسى المصريين الأقدمين .

أما الهياكل فكانت تستورد لها الحجارة من الأقطار النائية وكانت تزيّن بأعمدة وأفاريز من النحاس مطعمة بمواد شبيهة بالحجارة الكريمة . وكان هيكل

ناتاو فى أور طرازاً تحتذيه سائر هياكل أرض الجزيرة ، فكانت جدرانه مغطاة من الخارج بالقرميد الأزرق الشاحب ، أما من الداخل فكانت تكسوه ألواح من الأخشاب النادرة ، كخشب الأرز والسرو تطعم بالرخام والمرمر والعقيق الظفرى واليمانى والذهب وكان أعظم هيكل فى المدينة يقام عادة فوق ربوة ، يعلوه برج من ثلاث طبقات أو أربع أو سبع فى بعض الأحيان ، يحيط به سلم لولبى ذو بسطة عند كل مقلب . وكانت هذه الأبراج أعلى صروح فى المدائن السومرية ، ومساكن أعظم آلهتها ، وكان فى وسع الحكومة أن تجد فيها آخر حصن روحى وطبيعى يعصمها من الثوار أو الغزاة(*)(٦٢) .

وكانت الهياكل تزينها أحياناً تماثيل للآلهة وللحيوان وللأبطال من بنى الإنسان . وكانت هذه التماثيل ساذجة غير جميلة فى صناعتها تمثل القوة والعظمة ولكنها ينقصها الصقل والأناقة والدقة الفنية . ومعظم ما بقى منها يمثل الملك بجوديا . وهى منحوتة من حجر الديوريت الصلب نحتاً واضح المعارف ولكنه مع ذلك فج ساذج . وقد عثر فى خرائب تنتمى إلى العهد السومرى الأول على تمثال صغير من النحاس على شكل ثور ، عدا عليه الدهر ولكنه لا يزال يفيض حيوية وهمة ثورية . وفى مدينة أور عثر المنقبون على رأس بقرة مصنوع من الفضة فى قبر الملكة شب ــ آد وهو آية فنية تشهد بما وصل إليه الفن من رقى عظيم ، وإن كان الدهر قد عدا عليها حتى لم يعد فى وسعنا أن نقدرها التقدير الذى هى خليقة به . وإن هذا الحكم ليؤيده ما بقى من النقوش المحفورة تأييداً

(*) وقد أوحت هذه الأبراج إلى المهندسين الأمريكيين بطراز جديد من المبانى الشاهقة . ولم يسع القائمين على أعمال التنظيم فى تلك البلاد إلا أن يرغموهم على الرجوع بالطبقات العليا من المبانى إلى الداخل حتى لا يحجبوا الضوء عن جيرانهم . وإذا ما مثل الإنسان لنفسه أبراج السومريين التى أقيمت من الآجر منذ ٥٠٠٠ عام وأبراج مدينة نيويورك المقامة من الآجر فى هذه الأيام إذا مثل الإنسان لنفسه هذه وتلك تضاءل الزمن أمامه حتى لم يعد أطول من طرفة عين .

obeikandl.com

إلى مستوى مزهريات عيلام . أما صناعة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعاً كما يدل على ذلك ما وجد فى أقدم مقابر أور التى يرجع تاريخ معظمها إلى عام ٤٠٠٠(٦٦) ق . م من أوانٍ من الذهب تنم عن ذوق راق ومصقولة أجمل صقل . وفى متحف اللوفر مزهرية من الفضة كجسم جوديا ولكنها مزينة بطائفة كبيرة من صور الحيوانات المنحوتة نحتاً جميلا(٦٧) . وأجمل ما وجد من هذه القطع الفنية غمد من الذهب وخنجر مطعم باللازورد عثر عليهما المنقبون فى أور(٦٨) . وإذا كان لنا أن نحكم على هذه الآية الفنية من صورها الشمسية(*) حق لنا أن نقول إن الفن يكاد يسمو فيها إلى ذروة الكمال . وقد كشف فى هذه الخرائب عن عدد كبير من الأختام الإسطوانية معظمها مصنوع من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة ، وعليها نقوش منحوتة فيما لا يزيد على بوصة مربعة أو بوصتين . ويلوح أن السومريين كانوا يستخدمون هذه الأختام فيما نستخدم فيه نحن الإمضاءات ، وكلها تشهد بما بلغته الحياة والأخلاق فى تلك الأيام من رقى وتهذيب ينقض ما لدينا من فكرة ساذجة عن تقدم الإنسان المتواصل من ثقافات الأيام الخوالى المنحوسة إلى ثقافات هذه الأيام التى بلغت الحد الأقصى من الكمال !

ويمكن أن نلخص الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج الساذج وحليها التى أوفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة وإتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد — على قدر ما وصل إليه علمنا فى الوقت الحاضر — نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وإمبراطوريات ، وأول نظم الرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأولى قصص الخلق والطوفان ، وأولى المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول

(*) وأصل هذه التحفة محفوظ الآن فى متحف بغداد .

أصباغ التجميل والحلى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل ، وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزيين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوئ الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة . وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة والنعيم للأقوياء ، وحياة من الكدح والعمل المتواصل لسائر الناس . وفى تلك البلاد كانت بداية ما نشأ فى تاريخ العالم من اختلافات يخطئها الحصر .

الفصل الثالث

الانتقال إلى مصر

أثر السومريين فى أرض الجزيرة — بلاد العرب القديمة — أثر بلاد الجزيرة فى مصر

على أننا إذا ما تحدثنا عن السومريين نكون قد قربين من بداية التاريخ قرباً يصعب علينا معه أن نحكم حكماً دقيقاً أى الحضارات التى نمت فى بلاد الشرق الأدنى والتى يتصل بعضها ببعض أوثق اتصال — نقول أى هذه الحضارات كانت أسبق من أختها أو أيها أعقبت الأخرى ؟ . إن أقدم مدوّنات كتابية وصلت إلينا هى المدوّنات السومرية وإن كان هذا فى ذاته لا يقوم دليلا على أن الحضارة السومرية أولى الحضارات ، فقد يكون هذا الكشف وليد الظروف المحضة ، وقد يكون نتيجة عبث الموت والفناء بمخلفات الأقدمين . وقد عثر على تماثيل صغيرة وآثار أخرى شبيهة بآثار السومريين فى بلدتى أشور وسامراء وهما من البلاد التى شملتها فيما بعد دولة أشور . ولسنا نعرف أكانت هذه الثقافة القديمة مستمدة من بلاد سومر أم انتقلت إليها من مكان آخر عن طريق نهر دجلة ؟ . كذلك تشبه شرائع حمورابى شرائع أور — أنجور ودنجى ، ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن الأولى تطورت عن الثانية ، وليست تطوراً لشريعة أخرى أقدم منهما عهداً ، وأن كلتا الشريعتين استمدت أصولها منها . وكل ما فى وسعنا أن نقوله هو أننا نرجح ، ولا نؤكد ، أن حضارة البابليين والأشوريين مستمدتان من سومر وأكد ، أو أن سومر وأكد لحقتا الحضارتين البابلية والأشورية بلقاحهما[٦٩] . ذلك أن آلهة بابل ونينوى وأساطيرهما الدينية ليست فى كثير من الأحوال إلا آلهة وأساطير سومرية طرأ عليها التحوير والتطور ، وأن

العلاقة التى بين اللغتين البابلية والأشورية وبين اللغة السومرية لتشبه العلاقة القائمة بين اللغتين الفرنسية والإيطالية من جهة واللغة اللاتينية من جهة أخرى.

ولقد لفت شوينفرت أنظار العلماء إلى تلك الحقيقة الطريفة العظيمة الخطر، وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح، وتأنيس الماشية والمعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر بل فى بلاد آسية الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، وهو يستدل من هذا على أن الحضارة — وهى هنا زراعة الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة — قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت منها فى صورة « مثلث ثقافى » إلى ما بين النهرين (سومر، وبابل وأشور) وإلى مصر(٧٠)، ولكن ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن ليبلغ من القلة حدا لا نستطيع معه إلا أن نقول : إن هـذا مجرد فرض جائز الوقوع.

وأكثر من هذا احتمالا أن عناصر بعينها من الثقافة المصرية مستمدة من بلاد السومريين والبابليين. فنحن نعلم أن مصر وبلاد النهرين كانتا تتبادلان التجارة — وخاصة بطريق برزخ السويس — ولعلهما كانتا تتبادلانهما أيضاً بالطريق المائى طريق مصاب الأنهر المصرية القديمة فى البحر الأحمر(٧١). وإن نظرة إلى الخريطة لتوضح لنا السبب فى أن مصر كانت طوال تاريخها المعروف تنتمى إلى آسية الغربية أكثر مما تنتمى إلى أفريقية. لقد كان من السهل أن تنتقل التجارة والثقافة إلى مصر من بلاد آسية بطريق البحر المتوسط. ولكنها لا تلبث أن تعترضها الصحراء التى تفصل هى وجنادل النيل بلاد مصر عن سائر بلاد أفريقية. ومن ثم كان من الطبيعى أن نجد فى الثقافة المصرية عناصر كثيرة من ثقافة ما بين النهرين.

وكلما رجعنا إلى الوراء فى درس اللغة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من

صـــلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية(٧٣) . ويبدو أن الكتابة التصويرية التى كان المصريون يستخدمونها قبل عصر الأسر الحاكمة قد انتقلت إلى مصر من بلاد السومريين(٧٣) . والخاتم الاسطوانى — و أصله بلا شك من بلاد الجزيرة — يظهر فى أقدم العهود المعروفة من تاريخ مصر ، ثم يستخفى ، وقد كان أسلوباً قديماً دخيلا استبدل به أسلوب وطنى أصيل(٧٤) . وليست عجلة الفخار معروفة فى مصر قبل عهد الأسرة الرابعة — أى بعد أن ظهرت فى سومر بزمن طويل ، ولعلها جاءت إلى مصر من أرض النهرين مع العربات والعجلات(٧٥) ، ورءوس الصولج المصرية لا تفترق فى شىء عن البابلية(٧٦) . ومن بين الآثار المصرية التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسر والتى عثر عليها فى جبل الأراك سكين من الظران جميل الصنع عليه نقوش بارزة هى بعينها نقوش أرض الجزيرة من حيث موضوعها وطرازها(٧٧) . ولعل صناعة النحاس قد نشأت فى غربى آسية ثم انتقلت بعدئذ إلى مصر(٧٨) . وتشبه الهندسة المعمارية المصرية الأولى هندسة أرض الجزيرة فى استخدام النقوش القليلة البروز لتزيين الجدران المتخذة من الآجر(٧٩) ، وفخار عهد ما قبل الأسر المصرية وتماثيله الصغيرة وموضوعات زينتها تشبه مثيلاتها فى أرض الجزيرة فى كثير من الأحوال أو شديدة الصلة بها بلا ريب(٨٠) . ومن بين الآثار المصرية الباقية من ذلك العهد تماثيل صغيرة لآلهة لا يخطئ الإنسان فى أنها من أصل أسيوى . ولقد كان الفنانون فى أور ينحتون التماثيل وينقشون النقوش التى يدل طرازها وما جرى عليه العرف فى صنعها على قدم هذين الفنين فى بلاد سومر ، وذلك فى الوقت الذى يلوح فيه أن الحضارة المصرية لم تعهد بدايتها(*)(٨١) .

(*) حاول مؤرخ كبير هو إليوت اسمث أن يعارض هذه الآراء بقوله إلى مصر وإن لم يعرف فيها الشعير والذرة الرفيعة والقمح بأشكالها البرية الطبيعية ، كانت هى البلاد التى نجد فيها أقدم الشواهد الدالة على زراعة هذه النباتات . وهو يعتقد أن الزراعة والحضارة بوجه عام قد انتقلتا إلى بلاد سومر من مصر نفسها(٨٢) . وكذلك لا يؤمن الأستاذ برستد — أعظم علماء العاديات المصرية الأمريكيين — بأسبقية الحضارة السومرية للحضارة المصرية ؛ وهو يعتقد أن العجلات قديمة فى مصر قدمها فى بلاد السومريين إن لم تكن أقدم ، ويرفض رأى شوينفرت ، وحجته فى ذلك الرفض أن الحبوب قد وجدت فى أشكالها البرية فى مرتفعات بلاد الحبشة .

ولا غضاضة على مصر فى أن تعترف بالسبق لبلاد سومر ؛ ذلك أنه مهما تكن الأصول التى استمدتها مصر من أرض دجلة والفرات فإن هذه الأصول سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة مصرية خالصة فذة هى بلا ريب من أغنى الثقافات المعروفة فى التاريخ وأعلاها شأناً وأعظمها قوة ؛ وهى مع ذلك من أكثرها رشاقة وجمالا ، حضارة إذا قيست إليها السومرية لم تكن هـــذه إلا بداية فجة ، بل إن حضارتى اليونان والرومان لا تفضلانها فى شىء .

obeikandl.com